

## صاحب المليار الذهبي يعيده كورونا إلى الحياة

مالتوس

هل لا يزال كوكبنا بضيافته؟



● وضع العالم حسب تصورات مالتوس وجود موانع تكبح نمو السكان وتنقص أعدادهم، فالناس لا يملكون الثقافة والبصيرة، ولا بد من تدخل عوامل خارجية كالحروب والإفكار والمجاعات والأوبئة لتحقيق هذا التوازن.

● التحولات الاقتصادية يرى مالتوس أنها تتوافق مع انتشار مشكلات اجتماعية خطيرة. مع نقص إنتاج المواد الغذائية وارتفاع الأسعار والتكدس البشري.

الحلول، وكل الجشع، وكل الاستبداد، وكل الجريمة، كانت على حساب حياة الملايين؛ الذين اعتبرهم هؤلاء الراكعون أحمالاً زائدة يجب التخلص منها لبقية مليار مالتوس الذهبي. ها هي الجائحة تركعهم وتجرف أرواحهم كما تفعل بارواج البسطاء المستضعفين في الأرض.

دون أن نشعر بما يدور حولنا انتشرت ما تعرف بالمالتوسية الجديدة، عبر برامج مراقبة السكان، لضمان الموارد للسكان الحاليين والمتوقعين. ويقول البعض إن "المالتوسيين الجدد" هم أخطر من مالتوس ذاته. لأن اهتماماتهم تنوعت نحو التدهور البيئي والمجاعات والأوبئة وغيرها.

دون أن تكون هناك "منظمة مالتوسية" في العالم، نجد أن غالبية الأنشطة الإنسانية اليوم، هي مالتوسية. الأهداف: الليبرالية والليبرالية الجديدة، والأحزاب الاشتراكية، والحركة النسوية، وجمعيات حقوق الإنسان، والناشطون الاجتماعيون، وغيرهم.

وهناك من يرى المالتوسية تنجسد، ولكن غير معروف عبر أي بوابة تدخل على البشرية الآن؛ هل تدخل من بوابة عدم توازن عدد السكان والغذاء، أم من باب جشع الرأسمالية والتحكم بارواج البشر وزيهم في البيوت، أم عبر القضاء على لا ينتج، وبمجرد توقف إنسان هذا العالم عن خدمة رأس المال؛ لا بد من تحذيره بحرب أو جائحة.

وهنا هو التحالف العقائدي بين من اعتبروا أنفسهم ممثلي الله على الأرض وتجار السلاح يتهاوى. ها هم أنفسهم يبحثون عن العلماء الذين تعينهم روح الإنسان وصحته وكرامته كي ينقذوهم؛ والراكعون ذاتهم هم من أهمل وربما قتل هؤلاء يوماً. ولكن الإنسان يقول؛ ليذهب مالتوس ونظريته إلى الجحيم، فيالكرامة والحرية والإنسانية يحيا البشر، وحسب.

**التحالف العقائدي بين من اعتبروا أنفسهم ممثلي الله على الأرض وتجار السلاح يتهاوى في هذه الأيام. وها هم أنفسهم يبحثون عن العلماء الذين تعينهم روح الإنسان وصحته وكرامته، كي ينقذوهم**



المتابعون في وسائل التواصل الاجتماعي؛ لماذا يتصدر السياسيون من مسؤولين وزعماء مسألة التهويل لفايروس كورونا؛ لماذا لا يتركون الأمر للمختصين بدل إرعاب وإرهاب البشرية بخطاباتهم وتحذيراتهم؛ هل لأن الوباء أخطر من أن يتركوه للمختصين فقط؛ وما الذي يعرفه هؤلاء العامة؛ وحتى ربما المختصون علمياً؛ لتتابع هذا الإرعاب الرسمي: رئيس أميركا يعلن حالة الطوارئ في البلاد ويطلب المليارات لمواجهة الفايروس الصيني كورونا. رئيس وزراء إنجلترا يهين الإنجليز لفقد أجيال قبل الأوان. رئيس الصين يخوض معركة خطيرة ضد فايروس شيطاني. رئيس فرنسا يمر بأسوأ كارثة صحية على الإطلاق. تجاه هذا الحدث الغريب تتوقع إصابة 70 في المئة من السكان بهذا الفايروس القاتل. رئيس وزراء إيطاليا يفقد السيطرة على مواجهة كورونا.

تتناشر الأسئلة بمتواليته هندسية، أما الأجوبة فتكاد تنعدم. ويبقى على رأسها؛ ما إذا كانت الدول قد أخطأت حين خصصت كبرى الميزانيات للتسلح والفتك بالإنسان على حساب البحث العلمي وحماية البشر، أم أن العملية برمتها ليست اعتباطية، وتسير وفق المالتوسية بوحينيتها الناعمة، ومن هنا كانت الصين البداية؟

### النمو المالتوسية ونظرية المؤامرة

ولإزاحة نظرية المؤامرة الخفية والمالتوسية العنيفة، هناك من يسأل؛ ولماذا الهند بملياراتها وملايينها لم تصب بنسبة عالية مثل غيرها؛ وأخر يرى الأمر سباقاً للسيطرة الاقتصادية على عالمنا جاعلاً من عدد السكان الزائد نعمة لا نقمة. وغيره يرى عكس ذلك تماماً حيث إن عالمنا سيبص بكساح اقتصادي لأن هناك شبه توقف للحياة على كوكبنا.

حقيقة ليس هناك قطعة بواحدة من تلك الرؤى، قد يكون الأمر نتيجة فعل متعمد، أو مأل طبيعي للتطور الحيواني؛ لكن ما هو قطعي أن قادة هذا العالم، الذي لم يلتفت للجوع الذي حصد الملايين في أفريقيا؛ ولم يوقف أنظمة إجرامية تحصد أرواح وكرامة شعوبها عند حدها، يركعون باستسلام أمام جائحة غير مرئية، كل

أن ذلك برأيه لا يكفي؛ فالناس لا يملكون الثقافة والمعرفة والبصيرة؛ ولا بد من تدخل عوامل خارجية كالحروب والإفكار والمجاعات والأوبئة لتحقيق هذا التوازن. الماركسية من جانبيها وقفت موقفاً مضاداً لنظرية مالتوس في العلاقة غير المتوازنة بين عدد السكان والإنتاج منطلقاً من مبدأ الصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي؛ حيث إن هذا البؤس الاجتماعي ناتج عن الخلل بين السكان والتنمية، وهو النتيجة الطبيعية لعيوب النظام الرأسمالي، وعلى رأس ذلك؛ الاستغلال والإفكار المتعمد والجوع إلى الحرب والتجويج والأوبئة من أجل بقاء الطبقة الأعلى مسيطرة.

### رفع معدل الوفيات

السؤال الآن؛ هل تأتي تصريحات مسؤولي الدول الكبار بخصوص الشغل الشاغل للبشرية "كورونا" اليوم ضمن هذه السياقات؛ لنتذكر ما قاله وزير الدفاع الأميركي السابق روبرت مكنامارا في خطاب له أمام نادي روما عام 1979 "إن الارتفاع الصاروخي لعدد سكان العالم يشكل أكبر عائق أمام التطور الاقتصادي والاجتماعي في العالم، لهذا ينبغي علينا الآن وليس غداً أن نمنع وصول عدد سكان الكوكب إلى عشرة مليارات نسمة". ويرى الوزير أن هناك طريقتين لتحقيق ذلك، "إما بتخفيض معدل الولادات في أصقاع العالم، وإما برفع معدل الوفيات، والطريقة الأخيرة يمكن أن نتحقق بعدة أساليب، ففي هذا العصر النووي يمكن للحروب أن تؤدي العرض بسرعة فائقة وناجحة للغاية. وهناك طبعاً المجاعة والأمراض، وهما سلاحان ما زالا موجودين حتى الآن".

أما السؤال الأكثر حساسية في هذا السياق بالذات فهو ما طرحه

كتابه الهام "بحث في مبدأ السكان" أثار في زمنه ضجة هائلة، ويشير المؤرخون إلى أن عبارة واحدة منه كانت كقيلة برفع الكثير من الأصوات ضده، وهي قوله إن "الإنسان العاطل الذي لا ليس له من يعيله لن يكون له نصيب من الغذاء فهو ضيف فائض على وليمة الطبيعة التي ستأمره بمغادرة المكان على الفور".

### نتيجة طبيعية للخلل

رأى مالتوس أن التحولات الاقتصادية قد توافقت مع انتشار مشكلات اجتماعية خطيرة. فالنقص في إنتاج المواد الغذائية أدى إلى ارتفاع الأسعار، وزيادة التكدس البشري فأقمت الفقر، وزادت البطالة. وبينما رأى علماء آخرون أن الازدهار والفقر

والحرمان هي نتاج لنظم اجتماعية بائسة، وسوء تنظيم في المؤسسات الحكومية والقوانين الجائرة؛ رآها مالتوس كنتائج طبيعية للنمو السكاني؛ فالتناقص بين قدرة السكان على التزايد، ووفرة الأرض على إنتاج الغذاء، هما المعضلة الأساس التي تواجه البشرية والتي تتمخض عنها زيادة في الماسي البشرية والأمها وتعقيد للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية من جوع وبطالة وفقر ومرض ورنيلة وفساد أخلاقي.

وهنا، كما يعتقد مالتوس، لا بد من موانع تكبح نمو السكان وتنقص أعدادهم، وقد تأخذ ذلك الشكل الإيجابي والأخلاقي كالعفة والزهد والرهبة؛ إلا

يحيى العريضي  
كاتب سوري

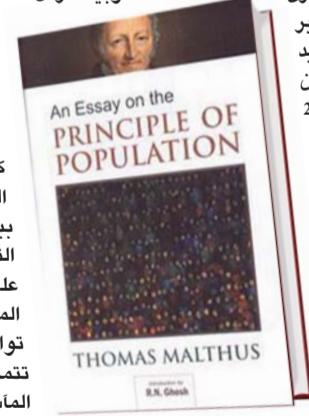


إذاً تمعناً في نظرية مالتوس، التي لا تزال تلاحق البشرية منذ نهاية القرن الثامن عشر، فلا بد من القول إن انتشار فايروس كورونا، سواء كان فعلاً طبيعياً، أم مُتعمداً، يقع بالفعل ضمن نطاق مليار مالتوس الذهبي على كوكبنا.

تقول نظرية الرجل إن التزايد السكاني يتم بمتواليته هندسية وصفها صاحبها بدقة. تصل من الرقم 1 إلى الرقم 256، وتشير إلى أن عدد سكان كوكبنا يتضاعف كل 25 سنة؛ أما تزايد ما يحتاجه الإنسان من موارد عيش، فيتم بمتواليته حسابية مختلفة تبدأ بالرقم 1 وتصل إلى الرقم 9.

وكي يكون هناك توازن، لا بد للبشرية أن تتدبر أمرها لضبط التزايد السكاني؛ فالجودة بين النسبتين هي 9 لـ 256 للفترة الزمنية ذاتها. توماس روبرت مالتوس عالم سكاني اقتصادي بريطاني ارتبطت نظريته باسمه، ولد في العام 1766، وهو ابن لأسرة إقطاعية ثرية، درس الرياضيات ودرس معها العديد من التخصصات.

قيمة أبحاث مالتوس تكمن في ربطه التزايد السكاني مع الإنتاج بعامل الزمن، وهو جانب لم يكن قد تمّ أخذه بالاعتبار من قبل، إلا إذا عدنا إلى ابن خلدون وأسبقيته في علم الاجتماع.



● الحدث الغريب الذي يواجهه العالم بتجلياته، يجعل من الأسئلة تتكاثر، ويبقى على رأسها؛ ما إذا كانت الدول قد أخطأت حين خصصت كبرى الميزانيات للتسلح والفتك بالإنسان بدل البحث العلمي وحماية البشر.